

## نحو نظرية للقومية العربية

### محاولة في تجديد الفكر القومي

مداخل الكتاب

تصدير : الموضوع والحدث

تمهيد : القومية العربية .. لماذا

مقدمة : نحو نظرية للقومية العربية

تصدير الموضوع والحدث

لقد وقع نوعان من التطورات على الصعيدين : الدولي والعربي في الفترة الأخيرة يؤكدان الموقع المركزي للإيديولوجيا القومية عموماً ، وللقومية العربية خصوصاً ، في المرحلة التاريخية الراهنة:

فعلى الصعيد الدولي ، أدى انهيار هيكل النظام الدولي القائم على القطبية الثنائية بسقوط الاتحاد السوفييتي في مفتح التسعينات إلى انهيار (المادة اللاصقة) للعلاقات الدولية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومن ثم تبعثر وحداتها التكوينية الأساسية وبروزها إلى الواجهة على مسرح السياسة الدولية. وقد تمثل ذلك في فورة الإثنيات و العصبية الجزئية و كذلك القوميات المختلفة طوال عقد التسعينات.

و على الصعيد العربي، شهد الوطن العربي تفاقم الازدواجية بين قومية تستعيد قوة دفعها على الصعيد العالمي و تشهد عافية مستجدة على الصعيد الشعبي العربي ، تضامناً مع القضيتين الفلسطينية والعراقية ، وبين نظام عربي رسمي يفقد سريعاً مبررات وجوده ومقومات دوره التضامني تحت تأثير اختراقات خارجية طاغية ، وخاصة من الطرف الامريكى – الصهيوني .

وقد جرى على الصعيد الدولي انتشار لدعوة وممارسة جديدة سميت بالعولمة، و أدت في المحصلة النهائية إلى تعزيز قوة الدولة القومية في أمريكا الشمالية وغرب أوروبا وشرق آسيا انطلاقاً من التوجه الاستراتيجي لدعم (القدرة التنافسية القومية)، من جانب أول، و إلى إضعاف "الدولة الوطنية " وما يماثلها ويناظرها في إفريقيا و آسيا و أمريكا اللاتينية سواء في المجال التنموي الداخلي أو في العلاقات الاقتصادية الخارجية، من جانب ثان . وقد تمت هذه العملية المزدوجة في ظل انتشار مقولة انحدار أو تقلص السيادة (القومية) للدول لحساب النشاط الدولي

"عابر الجنسيات " ، مما أسهم في عملية أو محاولة (طمس الوعي القومي ) في العالم الثالث (السابق).

و برغم ذلك فقد تخلت الولايات المتحدة الامريكية في ظل الإدارة " المحافظة الجديدة" مع مطلع ٢٠٠١- ضمينا على الأقل- عن عقيدة العولمة بخطابها المراوغ في المجال القومي وتبنت عقيدة وطنية و قومية خالصة، ذات طابع تدخلي- عدواني صريح في المجال الخارجي ، من أجل تأكيد سيادتها المهيمنة وإهدار سيادة الدول الأخرى وخاصة في العالم الاسلامى و الإقليم العربي- الأفريقي ، ضمن ملابس ما يعرف بأحداث ١١ سبتمبر.

وحدث على الصعيد العربي أن استطلت النزعة القومية المتعصبة للولايات المتحدة واستحالت إلى ممارسة "امبريالية" ذات طابع هجومي "استباقي" ، خاصة على صعيد القضية العراقية، بعد سبتمبر ٢٠٠١. وصاحبت هذه الظاهرة ظاهرة مكملة وهي تعميق الاختراق الخارجي- الأمريكي- للنظام العربي الرسمي ومحاولة تحطيمه حتى النخاع ، في إطار ترتيبات فضفاضة وغير متيقن منها بصورة محددة . وفي نفس الوقت فقد انطلقت القومية العربية الشعبية ، مشرقا و مغربا ، لتغطي عجز النظم الرسمية والاطار الجامع لها وخاصة ابان عملية الغزو الأمريكي للعراق (٢١- ٣ / ٩-٤ ٢٠٠٣) .

وأما بعد الغزو فقد نشط فريق من المثقفين العرب لتحميل إيديولوجية القومية العربية نفسها مسؤولية الوضع العربي المتردي ، والادعاء بأن طريق الخلاص هو في انتهاج الديمقراطية "الليبرالية"، هكذا مجهلة و بغير تعيين. ولكننا نجتهد فنرى أن طريق الخلاص هو في استعادة قوة الدفع القومية العربية الشعبية و ربطها بأيديولوجية أوسع للتقدم العربي تقوم على استئناف التطور الحضاري العربي - الاسلامي ، المؤلف مع "المسيحية الشرقية"، وبناء قاعدة القوة الاقتصادية والاجتماعية و السياسية والثقافية ، في أفق ديمقراطي شعبي - اشتراكي ، وذلك من خلال السعي إلى التحرر الوطني - الاجتماعي وإقامة العدالة الاجتماعية الجذرية.

### تمهيد: القومية العربية.. لماذا؟

أصبحت الكتابة عن ( القومية العربية) محفوفة بالمخاطر هذه الأيام ..

بل لقد أحاط بالفكرة القومية لغط كثير في الوطن العربي خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة كلها. لقد كانت هذه الفكرة تمثل قوة الدفع الرئيسية وراء تكون الدول الحديثة في أوروبا الغربية و الشرقية و الأمريكتين طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكانت - حقا أو باطلا - تمثل المظلة التي احتتمت بها الدول الاوروبية الكبرى و (اليابان) من أجل خوض حروبها الاقليمية، العالمية طوال القرن العشرين .

وأما في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد اشتدت حركة التحرر الوطني من الاستعمار التقليدي، الجديد، خاصة في إفريقيا و آسيا، مما يمثل بدرجة أو أخرى انتصارا مضافا للفكرة القومية.

ولقد سمي القرن التاسع عشر "عصر القومية" إشارة إلى الاثر العميق للقومية في أوروبا الغربية والشرقية- وأطلقت على مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية- من بين تسميات أخرى- مرحلة التحرر الوطني و القومي .

في هذا السياق التاريخي نشأت و تبلورت الفكرة القومية العربية . فقد بدأ ظهورها من خلال مسالك غير مباشرة أواخر القرن التاسع عشر لتواكب (عصر القوميات). ثم تبلورت إلى حد كبير- كفكرة سياسية- في العقدين الأولين من القرن العشرين . وكان نشوؤها و تبلورها مرتبطين بحركة الاستقلال (القومي) في المشرق العربي عن الدولة العثمانية رغم اشتراك تركيا و العرب في الديانة على وجه العموم .

وفي الاربعينات، الخمسينات من القرن العشرين أخذت الفكرة القومية العربية تتطور إلى منظومة عقائدية أو "إيديولوجيا" على أيدي عدد من الحركات و الاحزاب السياسية الوليدة، وعدد من المفكرين الرواد.

وفي ظل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢- انطلقا من القاهرة- تبنى القائد جمال عبد الناصر الفكرة القومية، و تحولت إليه قيادة دفة الحركة القومية العربية كلها. و من خلال (مصر- عبد الناصر) قاعدة و قيادة، حققت القومية العربية أهم انجازاتها : بالتحول من كونها فكرة و حركة (مشرقية) إلى فكرة و حركة عربية عامة. و عبر هذا التحول تحققت انجازات محددة لعل أهمها: الوحدة بين مصر وسوريا (١٩٥٨- ١٩٦١)- ثورة اليمن شمالاً و جنوباً (١٩٦٢- ١٩٦٧)- ثورة الفاتح من سبتمبر في ليبيا (١٩٦٩)- حركة التحرر "الوطني القومي" ثم منطقة الخليج ثم استقلال بلدانه عن بريطانيا خلال الستينات وأول السبعينات.

وكانت هذه ربما أبرز الانجازات أو أكثرها ظهوراً للعيان .. و لكن البلاد العربية كلها تحولت من خلال الحركة القومية إلى (منظومة سياسية مشتركة)... وكان لتلك الحركة أثرها المباشر و غير المباشر في كل بلد عربي بدون استثناء تقريباً (كما في لبنان- الأردن- السودان- تونس، المغرب، موريتانيا... الخ).

ولقد كان الشاغل الرئيسي المعلن للحركة القومية كلها في الخمسينات والستينات هي القضية الفلسطينية، وكانت انجازاتها تستمد مشروعيتها من العمل في سبيل تلك القضية ... ولكن الحركة القومية عانت من اختلال خطير. فقد كانت الأحزاب والنظم التي تصدرتها (بما فيها قيادة عبد الناصر إلى حد ما) تعاني من نوع من التناقض : ما بين التصدي لمهمة أو مهام جلية تحت راية (مثالية سياسية) معينة، وما بين استراتيجيات وسياسات - في الغالب- ذات طابع عملي يصب في خانة الحسابات المحددة وربما المحدودة للنظم الحاكمة ورواها بشأن أمنها المحلي والاقليمي، واعتبارات التغيير الاقتصادي والاجتماعي في كل منها.

أضف إلى ذلك اعتماد (أسلوب للعمل) قائم على (التحزب السياسي والاجتماعي) أو (الاستنثار بالسلطة) ومن ثم : الانفراد بعملية تخصيص الموارد وتوزيع الدخول دون وضع اعتبارات الكفاءة والعدالة الاجتماعية في المقام الأول .

وقد أدى هذا (الأسلوب) إلى انتهاج آليات) متنوعة في الدول العربية الرئيسية تركز الانفصال بين المركز القيادي والشعب- بمستويات ودرجات مختلفة، وبين هذه الدولة وتلك. وانعكست هذه الظاهرة على تكوين القوات المسلحة ومستوى أدائها، مما أسهم بشكل رئيسي في وقوع هزيمة يونيو (حزيران) ١٩٦٧.

وقد نسب البعض مسؤولية الهزيمة إلى التيار القيادي الرئيسي تولى مسؤولية التوجيه والحكم في الستينات تحديداً ، وهو التيار القومي العربي عموماً ، وقيادة عبد الناصر خصوصاً . وكانت نتيجة ذلك - من بين عوامل أخرى- أن تتحت أو نحييت الفكرة و الحركة القومية جانباً ، وحلت محلها إلى حد بعيد : الفكرة و الحركة السياسية الإسلامية.. وسدت هذه الفكرة والحركة الفراغ الناجم عن انسحاب القومية العربية من الميدان طوال العقود الزمنية الثلاثة أو الأربعة التالية للهزيمة. صحيح أن بعض النظم والحركات والأحزاب والقوى ظلت ترفع لواء الدعوة (العروبية)، بعضها من خارج السلطة (الناصريون ) و بعضها بواسطة السلطة (البعثيون)- و لكن هذا كله تم إلى حد بعيد، خارج السياق الرئيسي للدعوة و الحركة القومية كما تبلورت في عصرها الذهبي في الأربعينات و الخمسينات والستينات، وخاصة في ظل قيادة جمال عبد الناصر، رغم (الاختلال الخطير) المؤدي إلى (الهزيمة).

وفي غمار عملية الغزو الأمريكي للعراق ٢٠٠٣ و إسقاط النظام الحاكم باسم حزب البعث، حاول الكثيرون أن ينسبوا (الهزيمة ) مرة أخرى إلى القومية العربية نفسها . وأصبح الحديث عن القومية- ودع عنك الكتابة عنها- محفوفاً بالمخاطر هذه الايام كما قلنا في البداية.

بيد أننا ، و قد ألفنا أقساماً عديدة من هذا الكتاب منذ مدة وألقينا بعضها محاضرات على طلبتنا من الدراسات العليا، ثم أعدنا النظر فيها مراراً، وأضفنا الكثير عليها في الفترة الأخيرة- نرى أن العكس هو الصحيح.

فليس طريقنا نحن العرب إلى التقدم رهيناً بالتخلي عن قوميتنا، بل هو مشروط شرطاً لازماً باستعادة التمسك بهويتنا القومية . على أن القومية- التي ندعوها هنا بالقومية العربية "الشعبية" - لا تعني الانصراف إلى ما يسمونه إصلاح النظام العربي الرسمي .

فنحن نرى أن عملية الإصلاح المذكورة و إن كانت مهمة وربما مطلوبة بشدة من أجل (إنقاذ ما يمكن إنقاذه)- إلا أنها لا تمثل أكثر من كونها (مهمة تكتيكية) قصيرة الاجل وربما متوسطة الاجل.

وأما العمل الاستراتيجي الحقيقي ، ومن أجل المدى الابعد، فهو يبدأ من الشعب العربي وليس من النظام العربي القائم أو النظم العربية الرسمية.

إنه أشبه بالعمل من أجل ثورة كاملة، ثورة عربية تستعيد زخمها الاجتماعي ، ليس بالمعنى الانقلابي المألوف، و لكن بالمعنى السياسي - الحركي ، التاريخي ، وبهذا المعنى الأخير يتجلى العمل القومي باعتباره عملاً في قلب الكفاح السياسي والاجتماعي لرفع قدرات الجماهير لامتلاك مصائرهما، أي الكفاح الديمقراطي باختصار.

فالنضال من أجل القومية هو عمل من أجل بناء سلطة الشعب العربي مستقبلاً، أي عمل من أجل الديمقراطية كما نفهمها، وليس كما (يفهمونها) و (يروجون لها) هذه الايام ، أولئك الذين يسوقون نمطاً شائعاً من الليبرالية على الانموذج الغربي و القائم على محض السياسة التمثيلية- النيابية ودعامتها ممارسة التصويت والاقتراع .

إننا ندعو إلى عملية سياسية- اجتماعية كبرى تمارس النخبة الواعية وال جماهير من خلالها استكمال مهمة بناء وطنها القومي Building – Nation وذلك من خلال الكفاح الديمقراطي كما قلنا، حتى ترفع عبر الزمن ولاءها وانتماءها العربي القومي الحقيقي ، فوق

الولاءات والانتماءات الفرعية والجزئية : طائفية كانت او إثنية... الخ- وتبني سلطتها الحقيقية – سلطة الشعب المنتج .

إن الديمقراطية هنا تبنى باعتبارها " عملية " Process أو ممارسة تاريخية حقيقية وطويلة الأجل وليست مجرد " حالة " State تهبط علينا فجأة أو تتحقق في لحظة واحدة أو ربما نحصل عليها كجائزة أ و نمح إياها من طرف الاخرين....

وإن الكفاح الديمقراطي وعملية بناء الوطن إنما يتحققان عبر ممارسة هادفة إلى تحقيق التطور العربي الارتقائي : تطور اقتصادي واجتماعي وسياسي و ثقافي .

أما مضمون هذا التطور فهو تحقيق للكفاية و للكفاءة و العدالة الاجتماعية، وتحقيق لسلطة الشعب المنتج، ونثببت متوازن للهوية القومية- الدينية...

ويسمى هذا المضمون الفكري أو العقائدي بأسماء أخرى في العلم وفي الإيديولوجيا في نفس الوقت.

وهذه الأسماء الأخرى بلغتنا العلمية- الإيديولوجية ، ( أو بلغة العلم الاجتماعي كما نفهمها )- هي : العروبة والديمقراطية- الاشتراكية و الإسلام المؤتلف مع المسيحية الشرقية.

و أله بلغنا.. اللهم فاشهد.

وبعد...

فلنقرأ معاً الصفحات التالية من الكتاب، فق ما هو مبين في (الفهرست).... ولقد بدأنا بعرض عدد من المقدمات النظرية الأساسية ضمن فصل تمهيدي للكتاب، أتبعناه بالفصل الاول ضمن الجسم الرئيسي للكتاب، وتناولنا فيه بالبحث ما أطلقنا عليه (التكون الاجتماعي - التاريخي للأمة العربية)، وهو ما يمكن اعتباره المعنى الأول للقومية العربية، وذلك كحقيقة اجتماعية، تاريخية. وبذا ركز الفصل الأول على جانبين : تاريخي ، و أنثروبولوجي – اجتماعي .

وأما الفصل الثاني- عن الامة و القومية العربية في السياق التاريخي المقارن- فقد عنى بتقديم إضاءة تاريخية مقارنة بين السياق العام لتكوّن الأمة العربية سياق التطور القومي في الخبرة التاريخية الأوروبية ، مع تركيز خاص بعد ذلك على الظاهرة التي نطلق عليها (اغتراب إيديولوجية القومية العربية في المغرب العربي ) سواء من حيث العوامل المسببة لها أو من حيث

تمثالاتها في تاريخ الحركة السياسية في هذه المنطقة. وعرج الفصل الثالث من بعد، على ما يمكن اعتباره المعنى الثاني للقومية والقومية العربية، أي كحقيقة فكرية أو عقائدية. وعبر مباحثه المتعددة اشتمل الفصل على استعراض تحليلي موجز لمراحل تطور الفكرة القومية العربية منذ نشوئها حتى الوقت الراهن، كما قدم إيجازاً خاصاً للبعد الفلسفي في البناء النظري للقومية العربية.

وأما الفصل الرابع فقد عالج قضية القضايا حول مآل الإيديولوجية القومية في الوطن العربي...و نقصد بذلك، التجديد النظري لهذه الإيديولوجيا من أجل تمكينها من اكتساب القدرة على مواكبة متطلبات التطور العربي المرتجى . و انتهى الفصل بمبحثين مكملين لقضية التجديد: مبحث يعرض لأهم القضايا التي تثور في مواجهة القومية العربية في السياق العالمي الراهن، سياق تعارضات العولمة و "اللاعولمة" ومشروع البناء الامبراطوري - الامبريالي للولايات المتحدة الامريكية ، وحيث ينبغي ان تتحول القومية العربية الى جزء لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني والقومي العالمية الجديدة ، بأفاق مستقبلية، وعلى أساس اجتماعي وفكري متماسك.

أما المبحث الآخر، وهو الأخير ، فيحاول الاجابة على سؤال عربي قومي عتيق: كيف يمكن تطوير التكامل الاقتصادي العربي ؟ وذلك كأحد الممهيات لعملية التوحيد العربي المستقبلية ؛ والمشروطة بشروط تاريخية ، اجتماعية وفكرية ، ألمحنا إليها إلماحاً في بعض مواضع هذا الكتاب.

## كلمة الناشر

### نحو نظرية للقومية العربية

ينصرف عنوان هذا الكتاب إلى معنيين في ان معا:

يتناول الكتاب- بالمعنى الاول- سيرة نظرية القومية العربية، أوخط سيرها الخاص، أي القومية العربية وهي تكون نظريتها . ومن هذه الزاوية يعالج الكتاب نشوء الأمة العربية وتطورها الاجتماعي- التاريخي ، في حد ذاتها، وفي السياق المقارن، ثم يتناول التطور الفكري لنظرية وإيديولوجية القومية العربية، ويتوّج أخيراً بتقديم بعض إسهام المؤلف في المجال النظري.

أما المعنى الثاني فيعتبر هذا الكتاب محاولة- أو "مجازفة"- من المؤلف للمساهمة بصياغة نظرية معينة للقومية العربية. وبهذا المعنى تكون دراسة التطور الاجتماعي - التاريخي للأمة و القومية العربية هي العنصر الاول للهيكل المعماري للكتاب Architecture إذ يطرح الافتراضات الرئيسية للبحث Postulates بصورة مفصلة تجمع بين "الاستنباط " المجرد للأفكار التي (يؤمن) بها المؤلف، و"الاستقراء" للوقائع التاريخية ذات الصلة من واقع الملاحظة التحليلية ووضعها على محك التجربة التاريخية. ويتلوه العنصر الثاني المتعلق برؤية المؤلف النقدية "لتاريخ الأفكار" القومية العربية... وأخيراً يتركز العنصر الثالث على الرؤية (الذاتية) للمؤلف لتجديد نظرية وإيديولوجية القومية العربية.

وتثار في هذا السياق مسألة الأفكار و القيم في البحث الاجتماعي والتاريخي . ألم يقل الفكر الغربي المعاصر في مجموعه أن العلم (بما في ذلك العلم الاجتماعي نفسه) خالٍ من القيم

Value-free بمعنى أنه لا مجال فيه للتحييزات القيمية المعيارية، Normative أي تفضيلات الباحث الفكرية أو فننقل : العفائية...؟

بلى، فقد كان هذا القول في حقيقته رداء مثقوباً تسربت منه الافكار بشتى أنواعها إلى العلم، العلم الاجتماعي تحت الادعاء بعدم وجود الافكار...!

و لكننا نرى على العكس، أن العلم بنوعيه : الطبيعي والاجتماعي، لا يخلو من الافكار التي تهدي البحث العلمي وتقود خطاه : ابتداء من توجيه الملاحظات، ثم صياغة الفروض، ، انتهاء بقيادة التجربة للتحقق من صدق الفروض . لذلك لا نرى بأساً من القول إننا نحمل فكرة أو أفكاراً (مسبقة) معينة عن القومية..! وأن الجميع يحملون- صراحة أو ضمناً فكرة أو أفكاراً مسبقة عن القومية أيضاً ، وعن غيرها من قضايا وموضوعات البحث الاجتماعي – التاريخي ، بل والطبيعي ، ولكن بعضهم، أو كثيراً منهم، يغطي تفضيلاته القيمية لكي يمررها في ثنايا البحث بسهولة أكبر...!

وتتبع الأفكار- أو القيم الفكرية- للباحثين من خبراتهم الاجتماعية . إذ ينصهر في بوتقة هذه الخبرة أو تلك خليط متجانس ، أو غير متجانس!، من مكونات ثلاثة هي : المشاعر ذات الطابع النفسي – الاجتماعي ، والرؤية للمصالح الخاصة أو الاجتماعية (الطبقية...)، والميول الاعتقادية لكل باحث.

ولا تثريب علينا و لا جناح يشعرا بالحرج ازاء القول إن خبرتنا، من مشاعرنا ورؤيتنا الكلية للمصالح الاجتماعية، وميولنا الفكرية ، كلها رجحت لدينا القول بوجود أمة عربية في التاريخ، و وجود قومية عربية على صعيدي الممارسة الاجتماعية و الفكر. وبهدى من هذا الترويج القولي سرنا على طريق البحث الاجتماعي بغرض الدراسة العلمية للأمة والقومية العربية.

ومن أجل (فصل المقال) حول المشاعر، الميول وما يرتبط بالجانبين من رؤية اجتماعية ، لعنا نستميح القارئ الكريم عذرا في الإشارة إلى ما هو (شخصي ) هنا إذ يتحدث المؤلف فيما هو (موضوعي)...!

الناشر

## بضعة من السيرة الشخصية:

لقد نشأنا منذ الطفولة الباكرة في أحد أحضان الريف المصري- بمحافظة (البحيرة)- نشأة بسيطة، وتفتحت معها القريحة على قراءة وكتابة الشعر. و الشعر ديوان العرب الاقدمين كما يقولون . و قد رحنا من قرض الشعر إلى محبة الادب العربي كله عبر عصوره التاريخية. وكان أول العصور أخذًا بالألباب هو (العصر الجاهلي)، حيث تفتح وعينا الثقافي على كتاب طه حسين العتيد: ( في الادب الجاهلي) ، وكنا آنذاك في الصف الأول من الدراسة الثانوية (١٩٥٩- ١٩٦٠). و في الصفين الثاني والثالث قرأنا (حديث الاربعاء) لطه حسين بأجزائه الثلاثة، و غيرها كثير لطه حسين ( مثل: من حديث الشعر والنثر، حافظ و شوقي، ألوان، مستقبل الثقافة في مصر، مع أبي العلاء في سجنه، من لغو الصيف إلى جد الشتاء... الخ).، أضيفت إليها بعض أعمال جبران خليل جبران (حديقة النبي... ) ، ميخائيل نعيمة (الغربال) و المازني (مثل: قبض الريح) و غيرهم .

وانفتح أمامنا باب الأدب العربي القديم والمعاصر.. ومع الأدب كانت السياسة . فقد كانت تجربة الوحدة بين مصر وسوريا بقيادة عبد الناصر حدثًا انطبع على صفحة الوجدان، تأملا و شعرا، ومن بعدها الانفصال (سبتمبر ١٩٦١). ومن تأمل الحدث إلى التعلم المنظم، فالتحقنا بكلية الاقتصاد و العلوم السياسية بجامعة القاهرة في العام الجامعي ١٩٦٢ / ٦٣ ، حيث عشنا أجواء الدرس و أجواء الحدث مرة أخرى، مع تداويات الانفصال ثم محاولة الاتحاد الثلاثي (بين مصر، سوريا و العراق) وفق محاضر مباحثاتها عام ١٩٦٣.

وما لبثنا- مع فايز شخاترة- أن أنشأنا في الكلية جمعية طلابية هي (جمعية الوعي القومي) دعونا إليها زملاءنا، واستحضرنا بعض أساتذتنا الذين قرأنا كتاباتهم كلها آنذ، وقابلناهم عيانا- في منازل بعضهم أحيانا وفي محافل العمل والنشاط غالبا، خاصة (الشيخان) : عبد الله الريماوي وعصمت سيف الدولة ، بالإضافة إلى آخرين في مقدمتهم فؤاد الركابي .. وكان الريماوي بالنسبة لي أولهم- من حيث قدم التعارف والتعرف - وأقربهم من حيث الألفة الروحية و الفكرية على كل حال. وكنا نتبادل أكثر المشاعر حميميه مع جمع (الطلبة العرب) في جامعة القاهرة وجامعات أخرى في (الجمهورية العربية المتحدة..). وكانت جمعية الوعي القومي صنوا لجمعية أخرى منافسة لها هي (جمعية الفكر الاشتراكي) . ولم تكن الخيوط مقطوعة و لا هي واهية بين فكرنا (القومي) وفكرنا (الاشتراكي) مذ ذاك ، لا بل كانت متوثقة، وموثقة بالقراءة المنظمة وخاصة في (تاريخ الفكر الاشتراكي).

وبعد المرحلة الجامعية أتت مرحلة الانخراط في العمل السياسي ، من خلال اشتغالنا في قيادة الامانة المركزية للتثقيف بمنظمة الشباب الاشتراكي خلال الاعوام ١٩٦٦ - ٦٩ .

وكنا كتبنا سلسلة من المقالات في صحيفة هذه المنظمة و المسماة ب (الشباب العربي) عامي، ١٩٦٦ - ٦٧ بعنوان (تأملات في الثورة العربية المعاصرة- الثورة العربية في مفترق الطرق).

وجرت بعض مياه في النهر قادتنا إلى غياهب السجن السياسي عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ بعد اتهام رسمي بالمشاركة ( في تأسيس وإدارة) منظمة ذات طبيعة قومية : (قضية : "انصار الطليعة العربية " فبراير ١٩٧٢). ولما خرجنا من وراء الاسوار عكفنا على استئناف البحث

العلمي والدراسات الموجهة إلى النشر. وبدأنا هذا الجهد بإعداد مقال علمي نشر في مايو عام ١٩٧٤ بعنوان (ملاحظات أولية حول ظاهرة التجزئة)، لخصنا فيه أفكارنا المتبلورة حول الموضوع آنئذ- وربما حتى الآن..!

ولما انتقلنا إلى البحث الأكاديمي المنظم للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه – في حقل الاقتصاد الدولي – حاولنا ان نعكس ميولنا الفكرية في ابحاثنا . ولكنها لم تكن ميولا فكرية ( ومشاعر سيكولوجية ) – قومية فقط ، وإنما كانت اشتراكية ايضاً .. فقد قرأنا للاشتراكيين والماركسيين ، وقرأت أغلب إن لم يكن كل كتابات الياس مرقص ، المفكر القومي – الماركسي العظيم ، قدم لنا ترياقا شافيا في الأعوام منذ ١٩٦٧ حتى ١٩٧٢ للتوفيق العصي بين القومية العربية والاشتراكية ، وخاصة من خلال ( الماركسية في عصرنا ) و ( الماركسية والمسألة القومية ) و ( الماركسية والشرق ) و ( نقد الفكر القومي – ١- ساطع الحصري ) .

وكانت جل مساجلاتي الثنائية العاصفة- على المستوى الخاص- مع أستاذنا الدكتور عصمت سيف الدولة خلال فترة (١٩٦٨ - ١٩٧١) تدور حول العلاقة الفكرية للقوميين بالماركسية، وبماركس بالذات، وخاصة كتاباته الأولى..!

ولما جاء وقت العقاب المدني و المعنوي بعد الخروج من السجن، في محاولة " رسمية" لفرض (الموت المدني ) علينا، نشرت في صدر (الأهرام) أسماء المحرومين من الحقوق السياسية بمقتضى (قانون حماية الجبهة الداخلية) عام ١٩٧٨، ووضع اسمي ضمن فئة صنفوها ب (أعضاء التنظيمات الشيوعية..!)... ولم يكن ذلك صدقاً ..!

ولكننا ارتبطنا بأوثق رباط معا الاشتراكيين في مصر العربية، ربما أكثر من غيرهم.. وإن كان ارتباطاً مع تفارق أو افتراق : فقد كانت (القومية العربية) فاصلة بارزة بين جملتين حميمتين لكتاب الحياة..!

ولما تحولنا إلى العمل المهني في حقل الاقتصاد و الاقتصاد الدولي من خلال العمل كعضو في الهيئة العلمية لمعهد التخطيط القومي حتى درجة أستاذ، كان علم الاقتصاد لنا معيناً وهادياً- فقد تبلورت رؤيتنا للمصلحة الاقتصادية والاجتماعية للشعب العربي في مصر ، ضمن رؤية تكاملية عربية قومية .

وحاولنا تدعيم هذه الرؤية من خلال الابحاث الاكاديمية فى حقل الاقتصاد و الاقتصاد السياسي .

فلا غرابة إذن أن تجتمع مشاعرنا، ميولنا ورؤيتنا لمصالحنا العامة، حول القومية، او القومية والاشتراكية جميعاً .. ولذلك آثرنا أن نضع مع هذا الكتاب بين أيدينا، ملحقاً ، هو بحث أعدناه مؤخراً لمعهد التخطيط القومي بالقاهرة، بلغة (العلم المتأدب)، حول مسيرة التكامل الاقتصادي العربي ، أملين أن يلقى ضوءاً أو أضواء حول ضرورة بناء صيغة قومية حقيقية للعمل الاقتصادي العربي المشترك ، في ضوء دروس التجربة ... !

.. والى مسيرة التدرج في بحث القومية مرة أخرى .

فقد تخللت أفكارنا حول الأمة والقومية - وحول الاشتراكية - دراساتنا الاكاديمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٨٠ و عام ١٩٨٣ على التوالي ، في تخصص العلاقات الدولية. وكان لنا أن قمنا بتدريس مواد مختلفة في حقل الاقتصاد والعلوم السياسية في عدد من الجامعات العربية في الفترة من ١٩٨٤ حتى ١٩٨٧ ، ومن ١٩٩٠ حتى ١٩٩٤ ، وكان لنا في بعضها تجربة مباشرة ، فبتوجيه البحث الاكاديمي حول القومية العربية في مرحلة الدراسات العليا ، وربما كانت محاضراتنا فيها نواة لبعض ما كتبناه من بعد .

و في سنة ١٩٩٦ ألقينا عددا آخر من المحاضرات على طلبة الدراسات العليا في معهد البحوث والدراسات العربية (التابع لجامعة الدول العربية) بالقاهرة، حول الفكر السياسي القومي العربي، ما لبث المعهد أن نشرها في كتاب صغير عام ١٩٩٧. وعكفنا في نفس الفترة على إعداد ونشر جملة من الابحاث والدراسات حول عدد من القضايا المتعلقة بالفكر القومي العربي والحركة القومية العربية ثم جمعناها في كتاب قيد النشر بعنوان (دراسات في العروبة).

### عود على بدء

تقوم رؤيتنا في هذا الكتاب على العناصر الثلاثة لطريقة البحث العلمي :

صوغ افتراضات أولية ، نابعة من خبرتنا العيانية- فكرية و عملية ، وتمثل أولى خطوات البحث، وقوامها افتراض : وجود أمة عربية ذات مقومات معينة في التاريخ.. ويمثل ذلك ما يمكن اعتباره " الاستنباط " بلغة مناهج البحث.

ملاحظة دراسة للتاريخ العربي وللمجتمع، من أجل بلورة افتراضات الدراسة لمجموعة تفصيلية، والسير بها في حقل العمل الحي للبحث الاجتماعي ، وهو التاريخ نفسه، حيث تمتزج الملاحظة و التجربة- على هيئة تختلف نسبيا عما يحدث في حقل العلم الطبيعي بأدواته (المخبرية) بالمعنى الضيق . ويكون من هذا الامتزاج ما يعد بمثابة ( استقراء- تاريخي )، بلغة مناهج البحث أيضا .

و أخيراً ، صياغة الاستنتاجات الرئيسية التي تمثل خلاصة " اختبارا لصدق " الافتراضات ، كما تقدم اقتراحات محددة ببدائل للواقع القائم .

على أساس العناصر الثلاث السابقة وبني النسق المعماري لهذا الكتاب ، وفق ما عرضناه آنفا في (التمهيد): إذ يتناول الفصل التمهيدي المقدمات (الاستنباطية)، للدراسة. ويتولى الفصل الأول عرض أهم هذه المقدمات على محك الدراسة الاجتماعية- التاريخية لتكون الأمة العربية. ويستعرض الفصل الثاني البعد المقارن للدراسة، بينما يتقدم الفصل الثالث من البعد الاجتماعي للظاهرة موضوع البحث إلى البعد الفكري، فيتناول السيرة أو المسيرة الفكرية للقومية العربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . وينتهي الفصل الرابع بصياغة الاستنتاجات و الاقتراحات.

وإننا لنقدم في هذا الكتاب محاولة ندعو الله أن تستقبل استقبالا حسناً ، باعتبارها- من حيث الجوهر - دعوة إلى المراجعة النقدية للإيديولوجيات السياسية العربية الرئيسية جميعاً . وقد حاولنا أن نقطع خطوة واحدة على الطريق الطويل لمراجعة نظرية و ممارسة القومية العربية بطريقة

نقدية لعلها تلبي الشروط الاولية للبحث العلمي في نفس الوقت. ونأمل أن تتلو هذه الخطوة خطوات كثيرة من آخرين .

وإننا نرجو أن يقوم (أهل) كل إيديولوجية بمراجعتها، دون انتقاص من حق الباحثين الآخرين من ( غير أهلها).

و نقصد هنا بصفة محددة كلا من : الايديولوجية السياسية الاسلامية، و الايديولوجية الاشتراكية . وقد نضيف اليهما دعوى الايديولوجية ( الليبرالية ) السائدة هذه الأيام . !

فهل ينهض الجميع بما يجب عليهم النهوض به .. ؟

## بيان المحتويات

تصدير : الموضوع والحدث

تمهيد : القومية العربية لماذا ؟

كلمة الناشر : نحو نظرية للقومية العربية .. !

بضعة من السيرة الشخصية :

الفصل التمهيدي : مقدمات أساسية

المبحث الأول : ما المقصود بالنظرية ونظرية القومية العربية ؟

المبحث الثاني : مفهوم " القومية " و " القومية العربية " في التداول السياسي العربي :  
القومية كظاهرة اجتماعية وكمذهب سياسي ..

الفصل الأول : التكون الاجتماعي – التاريخي

المبحث الأول : حول المصطلح والدلالة : سامية / حامية أم " أفريقيانية ؟

المبحث الثاني : الأصول الأولية للجماعة العربية في التاريخ القديم ..

المبحث الثالث : أضواء على نشوء وتطور القومية العربية من منظور الانثروبولوجيا  
الاجتماعية ..

الفصل الثاني : الخبرة الأوروبية والخبرة العربية ودراسة حالة للمغرب العربي

المبحث الأول : الأمة والقومية في الخبرة الأوروبية

المبحث الثاني : الأمة والقومية في الخبرة العربية المقارنة

المبحث الثالث : الأمة والقومية في الخبرة العربية المقارنة

المبحث الرابع : في الوضعية المقارنة للقومية العربية بين المناطق المتعددة للوطن العربي

المبحث الخامس : دراسة حالة للمغرب العربي – اغتراب ايدولوجية القومية العربية

الفصل الثالث : التطور الفكري للقومية العربية

المبحث الأول : الاساس الاجتماعي – السياسي لنشوء وتطور الفكرة العربية

المبحث الثاني : مراحل تطور الفكرة العربية

المبحث الثالث : التفكير القومي خارج الاطار المؤسسي

المبحث الرابع : التفكير القومي في الإطار المؤسسي

المبحث الخامس : تبديد الأوهام

المبحث السادس : الأسس الفلسفية والمشروعات الفكرية

الفصل الرابع : التجديد النظري – الايديولوجي للقومية العربية

المبحث الأول : معالم الضعف في بنية الايديولوجيا القومية العربية

المبحث الثاني : الخلل التنظيري للفكر القومي الكلاسيكي

المبحث الثالث : الأبعاد النظرية البديلة للتجديد الايديولوجي

المبحث الرابع : الأبعاد النظرية الأخرى للتجديد

المبحث الخامس : الخيارات المطروحة امام تحقيق التجديد الايديولوجي للقومية العربية

المبحث السادس : الخيارات المطروحة امام تحقيق التجديد الايديولوجي للقومية العربية

المبحث السابع : قضايا اضافية في مواجهة الفكر القومي التجديدي مع مطلع القرن الحادي والعشرين

المبحث الثامن : كيف يمكن تطوير التكامل الاقتصادي العربي

قراءات مختارة للكتاب

مؤلفات الكاتب

موجز السيرة العلمية

نشر مؤسسة الرحاب الحديثة

بيروت – لبنان

٢٠٠٥ - ٢٠٠٦